القتيل

قصة

بقلم حميد حيدر

- ١ -

منذ زمن طويل وانا افكر بهذه القصة . لم تكن كل النوافذ مغلقة غير ان عشرات الكوى التي تتسرق منها الاشعة باتجاه ذلك العالم العضوي والنفسي ، كانت تربكني ، وتضعني امام اختبار رديء وموحش في الوقت نفسه .

اعترف مبدئيا انها عملية ارتياد صعبة ، لكنها مشوقة وخطرة . هل جرب احدنا يوما امساك الذرات السابحة في مسار ضوء الشمس الذي يخترق نافذة غرفة رطبة في الشتاء ؟

في طفولتي اذكر انني جربت ما هو اكثر استحالة : ان اعدو بلهفة غريبة تحت قوس قزح غب يوم شتائي سطعت شمسه .

كانت جدتي تقول : من يمسك قوس قزح ينجو من الموت . بيقين مطلق كانت تقول ذلك ، باليقين نفسه كانت تدرك ان احدا لن ينجو .

منذ زمن ليس باستطاعتي تحديده عرفت هذا الرجل الغريب . كانت معرفتي به تشبه مسار الذرات عبر ممر الشمس ، او رؤية الوان قوس قزح الرائعة . يسكنني ويخرج مني متى شاء ، يعترضني في اي مكان ، ويحدثني بغرابة عن جميع الاشياء ، لكنه قوس قزح ظل عصيا على اللمس .

بدرجة مختلفة احببته وحزنت عليه ابان تعارفنا في الازمنة الاولى . كان فتيا شرسا مغامرا في آن ، وفي آن كان يبدو هادئا مستسلما كامرأة اذلها الاغتصاب . وفي الآنين لم اكرهه .

الآن اذ ارنو اليه اكاد اصعق . ضيق وخوف يطوقاني . سحنة غريبة عديمة اللون . حدبة كريهة تتقبب فوق ظهره . عينان احتلهما العار طاردا منهما الومض القديم . ثم هذا الوجه المشوه وقد ناخ فيه العذاب وكل الذل .

والآن . الآن فقط اكاد امقته : ما الذي دهاه ؟

من قديم ، قديم ، هبط هذا المخلوق من عالم بعيد . قالوا انه اتى من الغابات ، وآخرون قالوا انه هاجر من الصحراء ، وقسم ضئيل من سكان هذه المدينة تكهنوا بانه اختمر من الارض ، وبفعل العواصف والامطار والرعود صار الى هذه الهيئة شبه البشرية .

لم يكن يعرف ميلاده احد . ذات يوم فوجئوا به وفيما بعد اعتادوه ، ثم مع الزمن صار كالمطر والريح والشمس ، ونسوه . جميع الناس عرفوه . كمد البحر وجزره ، بل كان البحر في غضبه وصمته .

تعايشنا زمنا قبل ان يصير الى ما هو الآن . عاش معي في اليقظة والحلم ، في الطفولة واليفاع ، وعلمني اشياء كثيرة . ما ازال اذكر تلك الليلة التي جاءني فيها وكنت قد قررت ان اعتزل الناس واعتكف في غرفتي لان الناس جميعهم اشرار وانانيون والانسان في هذا العالم يولد وينمو ويموت وحيدا كشجرة في صحراء ، وان الحياة مهما بدت حسية وحادة في الصفحة الاولى في الصفحة الثانية تبدو مجرد وهم او حلم .

يومها وانا اعبر تلك المرحلة المختلة اليائسة ، حضر . حدثته عن حالتي وقلت بانني يائس من كل شيء في هذا العالم وانني ساظل في هذا الجحر انام واستيقظ ، آكل وابول واتغوط ، اتامل الجدران واللاشيء وامضغ الضجر حتى اموت . يومها اتهمني بالمرض والعجز عن المشاركة وانني انا الاناني ، ولو ان جميع البشر فعلوا مثلي لاستحالت الحياة ولصار الانسان كالحجارة وانقرض النوع البشري عن الارض . واهاب بي ان اخرج من عزلتي وارمي بهذه الافكار السوداء في البحر .

في كل لقاء بيننا كنت اخسر . وكان ذلك يشبه موجا يندفع نحو صخرة ، يحتها ضربة اثر ضربة حتى تتشكل كما يريد الموج لا كما تريد الصخرة .

كان يطرح عليّ اسئلة محرجة ومخيفة حول الحب والموت والفرح والشقاء والزمن والاحلام والخلاص ، وكانت اجوبتي تخاتل حول اسئلته تحت ستار ان هذه الامور الصعبة يمكن ان تعاش اكثر مما يفكر بها ، وان التامل المضني حول مثل هذه المسائل يحيل الحياة الى جحيم يمتص بضارة الانسان دون الوصول الى قناعة نهائية ، وانني انسان بسيط ، كل ما ابغيه في الحياة عيش سهل وعمر تشرق الشمس خلاله وتغيب دون ان تمر في طور الكسوف .

بحزن كان يتملاني وانا احكي . حزن ممزوج بشفقة .

- آه . كم انت تعيس . انا حزين من اجلكم جميعا .

واذ سالته لماذا هو حزين ، اكتسى حالة كانت مزيجا من الشعر والفلسفة ، وراح يتحدث عن الناس المرضى الذين يموتون برغبة داخلية تستبطنهم دون ان يدركوها . خلال الزمن ينسجون موتهم كما تنسج دودة الحرير شرنقتها . وسمى تلك الرغبة بالخوف . الخوف المنبث في حليب الام ، والجاثم بين الطفل وابيه . الخوف المطل من عيني معلم المدرسة ، والمتربص في خطوات الفتاة الماضية للقاء حبيبها . الخوف الذي يغلب امة كثيرة العدد في حرب مفاجئة . ثم يضيف : منذ الطفولة تبدأ الانقسامات داخل النفس . خلايا تضمر لانها لا تمارس وظيفتها وخلايا تنمو على حساب الاخرى . على هذا النحو تنقسم

الغرائز الى خلايا ضامرة وخلايا نامية . ومع الزمن تكتسب الوانها الخاصة . ويسألني ان كنت لاحظت يوما الطيف الضوئي بحركة ذراته وامتزاج الوانه وتداخلها ، فاجيب بالنفي فيشرح لي ان اللون الاساسي موجود لكنه منقسم الى عشرات الالوان الاخرى لكن هذه الاشعة الجديدة تنفي اللون الاساسي . لا تنفيه تماما انما تبدده . لم يعد هو . هل تفهم ؟

اهز راسي يمينا وشمالا . تغزوني حالة من صعوبة الادراك . هذا المخلوق يطلسمني . احسني ذرة مقذوفة في فراغ ، وهذا المخلوق الغريب ريح . يرفعني عاليا عاليا نحو سماوات سبع طباق . يريني العالم ضبابا وهيولي . ينوس بي بين الفجر والليل بين الشك واليقين . يعطيني السر الذي يشبه شعرة الجحيم والنار ويقول : هوذا صراطك . امشي . امشي . لست في الفضاء ولا على الارض . لا حالم انا ولا يقظ . ابدو كانما على التخم الرفيع بينهما . وفجاة يهوي بي في منحدر الشمس نحو البحر .

الناس هنا ليسوا هم . كانوا في زمن ما ، لكن الانقسام حولهم . دخلوا شبكة الطيف الضوئي للخوف . الخلايا الاساسية هوت تحت الشبكة وضمرت . وفي مدار الطيف نمت الخلايا الفرعية . الحياة نفسها افرزتها ليستمر قانون الموت في الخوف . انا اتحدث اليك عن الجواهر . عن تكون الذرات الاولى في الصحراء ، يوم كانت الدنيا غمرا ثم صرخ اول طفل تحت الريح والشمس ثم حبا ثم مشى ثم امتطى اول صهوة ثم طعن اول عدو ثم انتشى ثم اغتيل ثم سقط في الصحراء .

منذ ذلك اليوم غزا الناس الاطمئنان . ركنوا تحت مظلة خوف لا يدركون خطره . كلكم تغفون تحت قشرة هلامية اسمها الزمن المنسي. هل سأل احدكم يوما نفسه عن الزمن الحي والزمن الميت وفي اي منهما يحيا . هل ادركتم يوما معنى الجوع والعطش والسجن والارق والعرى والقتل والخيانة . قم وانظر من نافذتك . انظر اليهم كيف يتسارعون في الشوارع خوفا من الخوف ، خوفا من الجوع والعطش والسجن والارق والعري والقتل والخيانة ، لكنهم بعد حين يقعون في الفخ . لقد نسوا من هم ، لو فتشتهم جيدا لعثرت على هوياتهم المزورة : ان احدا منكم ليس ابنا شرعيا .

ـ ٢ ـ

ارتجت باب حجري جيدا وانحدرت في مدينة اللقطاء . كل افكاري القديمة عن الحب والفرح والعفوية والبراءة والاخلاص ماتت . هبطت كما قال ذلك النفل نحو الطبقة المظلمة من البحر .

اعوم في الشوارع بين الامواج البشرية . الناس مسرعون لكن الخوف مرتسم في قسماتهم . حركاتهم مضطربة كانما هم مطاردون . احاول ان اسأل احد المارة . يرنو نحوي بازدراء ثم يخب خطاه ولا يجيب . لا احد يتحدث الى احد . الكل ماض عبر تيار خوفه .

ـ ما الذي دهى الناس ؟

فجاة اشعر بانني خائف . احاول ان امزج خوفي بخوف الناس فتعبرني حالة امان ، لكن الناس يمضون سراعا وانا متباطيء في الشارع القى الصديقة التي احببتها بكل ما ملكت نفسي . اسالها ماذا جرى . فتسالني عن العقد الاخضر الذي وعدتها به فاقول لقد هوى من يدي خطا في البحر . تندهش وتقول : كيف سارتدي فستاني الجديد بدونه؟

اقول : الست خائفة ؟ فتشرح لي بانها ماضية الى غرفتي وانها قد اشتاقتني وان علينا ان نسرع نحو البيت لننام معا عاريين قبل ان نموت . باقتضاب افهمها بان حكايتنا انتهت وانه ما عاد لنا زمن من اجل الحب وان الحب لا يحيا في ازمنة الخوف . خذي كل ممتلكاتك ضعي فيها حبنا القديم واقذفيها في الصحراء .

تتهمني بانني صرت لا مباليا وانني اخطات خطا فادحا برمي العقد في البحر وانني تحولت عنها . تحت ثديها الايسر اضع كفي فاحس وجيب قلبها : انت ترتعشين من الهلع يا عزيزتي . هل لك ان تعطيني هويتك لابدلها لك قبل ان تموتي ؟

ترنو نحوي باستغراب : هل فقدت صوابك ؟

اقول : لا . انما انت ستموتين قبل ان تصلي .

وتمضي عني . ارقبها . خطواتها سريعة وخائفة . تتلفت نحوي مذعورة حزينة وعلى ناصية الشارع تموت .

لست ادري الى اين . صار الخوف هاجسا وسفينة . وجوه الناس تقمصها الخوف وتحت الخوف بشائر موت مبهم . الان ارى هنا هذا الوباء كذرات كانت في حالة كمون تحت طبقات منسية . الذرات قذفت بمحرض هيجها وبعثرها فارتفعت كفقاعات داخل زجاجة محكمة السد . اكاد احس بأن آلاف الزجاجات موقوتة في العيون ارى التوقيت وداخل البيوت المطمئنة . خوف وتوقيت . توقيت وخوف وتعود الدنيا غمرا . تعود الدنيا صحارى . صحارى .

تعروني فكرة تجتاح مفاصلي . لو عدت الى بيتي واستلقيت على الفراش فسأموت . لو ولجت مقهى وجلست على كرسي سأموت . لو دخلت مطعما وانا آكل سأموت . لحظة الجنس هي الاخرى هاجس موت . امضي . الحركة قد تكبح الموت . اعبر حديقة تنتصب فيها اراجيح الاطفال . الاطفال لا يتأرجحون في طرف الحديقة تجمهروا حول طفلة . الطفلة عارية والاطفال حولها في حالة هرج واقتتال . بين فخذي الطفلة الحريريتين دم يسيل وفي ايدي الاطفال امواس تلمع ببريق خاطف . الطفلة تصرخ وعلى وجهها المستلقي كل هلع العالم والاطفال حولها يرقصون وقد اشرعوا امواسهم . بعد حين ينقضون عليها ويبدا الطعن . اهرع خارجا من الحديقة . صرت خوفي . كالقدر اراه بهيئته المحزنة المشوهة . احاول ان اهرب من وجهه . يسد علي المنافذ . يقهقه : حيثما وليت وجهك ثمة انا . الهرب لا ينجي . ملجلجا اقول : من انت ؟ بسخرية يرد : صديقك القديم .

ها . ها . الم اقل لك انكم تعيشون في الزمن المنسي .

يذكرني بالخوف والموت في النفوس التي خيل اليها انها تنجو بالركض والهرب غافلة عن قانون الزمن والتحول ، ناسية ان الموت يطولها ولو داخل ابراج مشيدة . ثم يشير الى الناس : هؤلاء الاحياء موتى مؤجلون حكموا على انفسهم بلعنة افقدتهم الذاكرة .

صدر حديثا

اعناق الجياد النافرة

ديوان جديد

لصاحب ((في شمسي دوار))

الشاعر الطليعي

فواز عيد

منشورات دار الآداب

أسأله : لماذا تغيرت ؟ فيقول : هم الذين تغيروا ، هيا معي الى ساحة المدينة .

ونمضي .

في الطريق اسأله لماذا ماتت صديقتي فيقول بانها فقدت الامل . الناس يموتون هنا لانهم بلا أمل . حتى الاطفال فقدوا آمالهم : مع الخوف والموت الامل مفقود .

ـ ولكن متى يعود الامل ؟

ـ مع عودة الذاكرة ، آنذاك يصير للموت معنى .

ـ لكن الموت هو الموت .

ـ في النتيجة . اما الاسباب ؟ هل سألت نفسك : لماذا يقتتل ابناء هذه المدينة ؟

ها نحن في ساحة المدينة . حشد من الناس . عراة ومحجبون . نساء ورجال . باعة وجنود . في مركز الساحة رجلان عاريان يتباريان بالسيوف . الاسطحة مكتظة والنوافذ . اصوات ترتفع مشجعة . جماعات تراهن على الذي سيفوز . رجل على الناصية يقرأ افتتاحية جريدة . على الناصية المقابلة شيخ ملتح معمم معه ربابة يغني وحوله جماعة :

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قتل الشهيد فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرج والرأس منه على القناة يدار

صبي مهلل الثياب يستجدي شيئا يأكله .

شاب وفتاة ينزويان في زاوية ويمارسان الحب .

فلاح ينادي على دجاجاته فيضيع صوته في الزحام .

في الجهة الجنوبية من الساحة تقف جماعة تهتف بشعارات سياسية ، تقابلها في الجهة الشمالية جماعة اخرى تهتف بشعارات مضادة . بين الجهتين شباب وبنات يهتفون للثورة الجنسية . صوت مؤذن يتنامى : الله اكبر . الله اكبر . في الوسط المبارزة مستمرة . اناس ينفرجون وآخرون لا يعنيهم الامر . بين حين وآخر تنشر على المتبارزين زنابق او فضلات فمامة . الساحة في حالة صخب وضوضاء لا مثيل لها وبين هذا الهرج يحاول الجنود ايقاف الضجة فيفشلون .

تحتدم المبارزة فيجرح احد المبارزين خصمه تحت عينه . يهتاج الجريح وتعلو الهتافات . يدور الجريح حول خصمه محاولا رد الطعنة . يخيم صمت نسبي . يرتفع صوت الشيخ عبر الضوضاء :

وسألهم الخليفة كيف فعلتم به فقالوا جاءنا في ثمانية عشر من اهل بيته ونيف وخمسين من اصحابه وانصاره فسألناهم ان ينزلوا على حكم الامر او القتال فاختاروا القتال فقتلناهم عن آخرهم وهذه رؤوسهم وسباياهم ، اما اجسادهم فبأرض كربلاء مطرحة تصهرها الشموس وتذروها الرياح وتنوشها العقبان .

ترتفع الهتافات . طعنة الجريح تمر تحت ابط الخصم . الآخر يزوغ وبحركة بهلوانية يطعنه تحت عينه الثانية . هياج اصوات مختلطة . يتمدد الخوف مع قطرات الدم التي بقعت ارض الساحة . الجريح يزداد شراسة فيلوب حول خصمه وهو يهدر . ضرباته عشوائية . ينقض على خصمه كالصقر لكن الآخر يميل فينبو رأس السيف .

هناك . انا وصديقي القديم صامتان . انا وصديقي القديم محايدان . الحزن بين سيفين مسنونين مصروع لا محالة . انا وصديقي القديم في نقطة منسية من محيط الساحة مدثران بالحزن فقط .

هوذا الاخر يدور . الجريح اعياه النزف . حركاته صارت بطيئة . الآخر يشرع سيفه يمده نحو الشرفات . من الشرفات تأتيه قبلات النسوة وقد رفعن الستر عن الوجوه والصدور . يقوم بحركات توحي بالنهاية . يرد القبلات بحد السيف . اصوات . حركة ويصبح خلف خصمه وبكل شبق القتل والجنس يطعن . يخترق السيف الظهر حتى القلب فينكفيء المصروع . بهدوء المنتصر يقترب منه يرتقي قفاه ويشرع سيفه في الفضاء بين التهليل والهتاف والتكبير وفي لمح البرق يختز رأسه ثم يرفعه على رأس سيفه . تختلج الجماهير بجنون الدهشة والخوف فيندفع كثيرون نحو الساحة . الجنود يرفعون المنتصر على الراحات وهم يصرخون . اختفى صديقي . واختفى الناس . فرغت الساحة الا من الجثة المقطوعة الرأس والصمت . بخطى موتية اعبر الساحة الا من الجثة المقطوعة الرأس والصمت . بخطى موتية اعبر حي على الصلاة حي على الفلاح حي على خير الانام .

دمشق

حيدر حيدر

صدر حديثا :

الحركة الوطنية الجزائرية

تاليف

الدكتور ابو القاسم سعد الله

اشمل دراسة عن تاريخ الحركة الوطنية في الجزائر ، تلك الحركة التي انتهت بثورة الجزائر العظيمة وبقيام الجمهورية الجزائرية الديموقراطية والشعبية .

٩ ليرات لبنانية

منشورات دار الآداب ـ بيروت